حروف الكتابة

تاريخ نشوئها وتطورها

تنقسم الكتابة الى قسمين الصورية التى مازالت تستعمل الى اليوم عند بعض هنود أميركا والصوتية. وهذه تنقسم الى ثلاث درجات. الأولى كل صورة أو علامة تدل على كلمة كاملة كاللغة الصينية والثانية تدل على مقاطع فقط. والثالثة لاتدل العلامات على المقاطع بل على أبسط الاصوات البشرية اللفظية. وهذه العلامات صارت حروفا سمى مجموعها بحروف الهجاء كما هو معروف (١) —

وقد اختلف المؤرخون فى كيفية تفرع حروف الكتابة ولكنهم اتفقوا على أن المصريين هم أول من أوجدوها وذلك فى أيام الدولة الرابعة ففى ذلك الوقت انشأوا نظاما عجيباً مختلطا للكتابة عبر فيه عن المعانى بصور وحروف هجائية وكان عندهم ثلاثة خطوط من الهيروغليف. الأول فيه كانت الصور والرموز ترسم بكل دقة وكان يستعمل للكتابة على العاديات من الأبنية والاعمدة والثانى المقدس وهو مختصر للتسهيل واكثر مخطوطات أوراق البردى مكتوبة به. والثالث الشائع أو العامى (٢) —

وهذا الخط — أعنى الهيروغليف — كان فى الأصل عبارة عن صور كاملة تعبر عما المصور فكان المراد من صورة الرجل الرجل. ومن صورة المرأة المرأة. ثم اتخذوا الصور للتعبير عما يتضمنه المصور مجازاً. فاتخذوا صورتى رجل وامرأة للتعبير عن جنس الانسان. وصورة هلال للتعبير عن الشهر وما اشبه. ثم انتهوا الى أن كنوا بصورة الشىء عن الصوت الأول فى اسمه فكانت الدائرة تدل على الشمس التى اسمها را أورى فاتخذ هذه الصورة كناية عن صوت الراء ٣ كما بين العلامة شامبوليون فى حله رموز حجر رشيد. فالصور الحقيقية والمجازية وصور الكناية عبروا عن المعانى. ولايخفى مافى هذا الاسلوب من الصعوبة فى الكتابة والقراءة. ولاعجب من أن

---

(١) — التاريخ القديم لميرز صفحة ٤

(٢) — التاريخ القديم لميرز صفحة ١٥

(٣) — الصور القديمة لبرستد صفحة ١٧٣

الناس لم يقدروا على كشف سرهما. ثم اخذوا يغيرون الاشكال ويوصلونها فى الخط لتسهيل الكتابة فامسى هذا الخط مختلفاً جداً عن أصله(١) —

وقد انتقل الخط من مصر الى بقية الأمم كالكلدانيين والأشوريين وتبدل عندهم تبدلا محسوساً، فقد تبين أنه كان للبابليين منذ العصور القديمة نسق كتابة بحروف صوتية سميت بالكتابة الاسفينية لأن حروفها على هيئة الاسفين وهذه الكتابة كانت مستعملة بين شعوب آسيا الغربية منذ نحو ٥٠٠٠ سنة · ق · م · الى القرن الأول قبل التاريخ المسيحى وكانت هذه الكتابة مدة اربعة آلاف سنة ذات شأن عظيم فى تمدن العالم السامى كما كان للحروف الفينيقية شأن مدة ثلاثة الاف سنة بعد ذلك فى تمدن العالم الآرى.(٢) فخط الأشوريين مركب من حروف أو علامات حقيقية على هيئة الأسفين وهي كثيرة تنيف على ٣٠٠ حرف أو علامة إذ كل صوت اصلى عندهم يترتب مع الحركات مايقابل حروف العلة مثل ب، باء، بى، بو، وأب وإب وأب ولكل منها علامة خاصة ، وقس على ذلك بقية الاصوات الستة عشر الاصلية فى لغتهم. ثم يركب حرفان أو صوتان مع كل من الحركات فى الوسط ولكل من هذه التراكيب علامة أيضاً ولهذا كثرت العلامات وتعسرت قراءتها (٣)

ومن الكلدانيين والاشوريين انتقل الخط الى الفينيقيين الذين سكنوا البحرين أولا ثم انتقلوا الى شواطىء بحر الروم وهم من نسل حام — على رأى بعض المؤرخين — ولما رحلوا سروا فى نجد والحجاز وتفرع منهم قوم فى اثناء الطريق استوطنوا نواحى جبل عسير. ولعلهم قوم ثمود فى اخبار العرب. ثم اتى الساميون وهاجموهم وسكنوا أرضهم: قال ابن خلدون فى اثناء كلامه على الطبقة الأولى من العرب، ويقال إنهم انتقلوا إلى جزيرة العرب من بابل لما زاحمهم فيها بنو حام فسكنوا جزيرة العرب ، (٤)

إلا أن هذا الرأى ينقصه البراهين الكثيرة لكون قصة حام وسام ليست من

---

(١) — التاريخ القديم لهارى بورتر صفحة ٣١ :

(٢) — التاريخ القديم لميرز صفحة ٢٣

(٣) — التاريخ القديم لهارى بورتر صفحة ٦٩ :

(٤) — التاريخ القديم لهارى بورتر صفحة ١٨٦ :

القصص التي يعتمد عليها فى تحرى التاريخ لأن الأمم ليست متسلسلة من افراد كما كان يظن ،وقد تكون قصة أو لاد نوح من الخرافات الدينية مع صحة وجود الطوفان المذكور فى الكتب المقدسة . فالفينيقيون بعد هجرتهم استوطنوا شواطىء بحر الروم وأوجدوا الحروف الهجائية المعروفة التى اجمع النقاد والمؤرخون على نسبتها اليهم ومنهم انتقلت الى اليونان فالرومان فالجرمان حتى عمت العالم (١)

وهذه نظرة اجمالية فى كيفية نشوء الحروف ،أما تطورها للحروف العربية الحاضرة فقد اختلف فيه المؤرخون فمنهم من يقول ان الخط المسند أصل كل الخطوط السامية بعد الخط الفينيقى ومنهم من يقول ان الخط الآرامى أصل هذه الخطوط انما مع اختلافهم هذا فهم متفقون على اسبقية الخط الفينيقى للمسند والآرامى فالافرنج يرتأون أن الخط الفينيقى مأخوذ من الخط المصرى وأن الخطين المسند والآرامى مأخوذان من الفينيقى والخط الآرامى تفرع الى خطين السريانى والنبطي ومن السريانى تفرع السطرنجيلى ومن السطرنجيلى تفرع الكوفى وتفرع من النبطى الحيرى والانبارى ومن الحيرى والأنبارى تفرع الخط الحجازى المعروف بالنسخى، والعرب يقولون أن الخط الفينيقى تفرع من المصرى وأن المسند والآرامى تفرعا من الفينيقى ومن المسند تفرعت أربعة خطوط الصفوى والثمودى واللحيانى والحميرى ومن الصفوى تفرع الكندى والنبطي ومن الكندى والنبطى تفرع الحيرى والانبارى ومن الحيرى والأنبارى تفرع الحجازى ومن هـــذا تفرع الخط الكوفى . قال صاحب أصول المعارف(٢) : وظن بعضهم أن العرب فى الزمن المتوغل فى القدم كانوا يستعملون فى الخط الحروف الشبيهة بالمسامير فاذا صح ذلك يمكننا أن نقول بأن الحروف المذكورة تغيرت فيما بعد بالحروف الحميرية وهى خط يقال له المسند كانوا يكتبون كل حروفه منفصلة عن بعضها وكانوا يمنعون العامة من تعلمه فلا يتعلمه أحد إلا باذنهم قال ابن خلدون وغيره فان هذا الخط كان بالغا مبلغاً من الأحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل

---

(١) ـــ التاريخ القديم لميرز صفحة ٣٥ والتاريخ القديم لهارفى بورتر صفحة ١٠٣ والعصور القديمة لبرستد صفحة ٢٠٥

(٢) ـــ أصول المعارف لنوفل نوفل صفحة ١٢٠

المنذر أنساباً التابعة فى العصبية والمجددين لملك العرب بأرض العراق، لكنه لم يكن فى الجودة عندهم كما كان عند التابعة ثم من أهل الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش عن رجل يقال له مرامر بن مرة، من بنى طى، وقيل من بنى مرة من أهل الانبار، وقال بعضهم نقلا عن الاصمعى إن بنى قريش سئلوا من أين لكم الكتابة فقالوا من الحيرة وقيل لأهل الحيرة من أين لكم الكتابة فقالوا من الانبار، وروى ابن الكلبى والسهيم بن عدى أن الناقل لهذه الكتابة من الحيرة الى الحجاز هو حرب بن أمية وقيل سفيان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى وكان قدم الحيرة فعاد إلى مكة بهذه الكتابة. وقيل لأبى سفيان ابن حرب: ممن أخذ ابوك هذه الكتابة فقال: من اسلم ابن سدرة وقيل لاسلم: ممن أخذت الكتابة فقال من مرامر بن مرة والحاصل أن من حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها لتوغلهم فى البداوة، ودامت خطوطهم غير مستحكمة فى الاجادة إلى أول الاسلام ثم ابدل الخط الحيرى المذكور بالخط الكوفى وذلك بعد أن فتح المسلمون الامصار وملكوا الممالك واحتاجوا الى الكتابة فاستعملوا الخط وطلبوا صناعته فبلغ فى الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان إلا أنها كانت دون الغاية ومع أن هذا الخط لم تطل مدته وابدل سريعاً بالخط البغدادى المتداول الآن مازال رسمه معروفا

ولما انتشر العرب فى الاقطار وفتحوا افريقا والاندلس واختط ابو جعفر المنصور مدينة بغداد وصارت دار الاسلام ومركزاً للعلوم العربية ظهر الخط البغدادى المذكور وتسمى بالجزم، قال صاحب محيط المحيط فى تعريف الجزم — الجزم مصدر . والقلم لاحرف له. والخط المتعارف فى ايامنا هذه لانه جزم أى قطع من خط حمير وهو الذى يقال الخط المسند — وقيل إن الذى وصل احرف الهجاء العربية ببعضها على هيئة استعمالها الآن فى الكتابة على ماذكرناه بعد أن كانت حروفها منفصلة هو رجل يقال له الشيخ على بن هلال السمسانى. وقيل بل أن الذى نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وأبرزها فى هذه الصورة المستعملة الآن هو تلميذه أبو على محمد بن على بن الحسين بن مقلة الذى يضرب المثل بحسن خطه فيقولون لمن أرادوا المبالغة فى جوده خطه: أجود من خط ابن مقلة وكان وزيراً للمقتدر بالله العباسى، وقيل أيضاً إن صاحب الخط المنسوب ليس أبا على المذكور وإنما هو أخوه أبو عبدالله الحسن، وقيل بل هو أبو الحسن على ابن هلال

المعروف بابن البواب الكاتب المشهور ، زعموا بأنه لم يوجد فى المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثلهم لا قاربه وان كان أبو على ابن مقلة المذكور هو أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وأبرزها فى هذه الصورة وله بذلك فضيلة السبق وخطه أيضاً فى نهاية الحسن لكن ابن البواب هذب طريقته هذه ونقحها وكساها طلاوة وبهجة، والكل معترفون له بالتفرد وعلى مثاله ينسجون وليس فيهم من يلحق شأوه ولا يدعى ذلك. توفى سنة ٤٢٣ للهجرة — ١٠٣١ م — وكان شيخه فى الكتابة ابن أسد الكاتب البزاز البغدادى المتوفى سنة ٤١٠ للهجرة — ١٠١٩ م .

ومما حكاه أبو احمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى فى كتاب التصحيف أن تمييز الحروف المتشابهة فى رسمها بالنقط حدث فى أيام عبد الملك بن مروان الذى تولى الخلافة فى سنة ٦٥ للهجرة — ٦٨٤ م حيث قالوا وغير الناس يقرؤون فى مصحف عثمان بن عفان نيفا وأربعين سنة أيام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف وانتشر بالفرات ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتابه — وكان يومئذ عاملا على البصرة لعبد الملك المذكور — وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المتشابهة علامات فقام بذلك النصر بن عاصم ووضع النقط أفراداً وأزواجا وخالف بين أماكنها فغير الناس بذلك زمانا لا يكتبون الا منقوطا فكان مع استعمال النقط أيضاً يقع التصحيف فأحدثوا الاعجام فكانوا يتبعون النقط والاعجام. ومما اعترض به على الحروف العربية عدم وجود دليل على فصل الكلمات عن بعضها كما تفعل الأفرنج فقد ذكر بعضهم لصاحب أصول المعارف حكاية فى هذا المعنى وهى أنه جاءه ذات يوم رجل من الاتراك يحب المطالعة ويرغب فى أشعار العرب وسأله عن معنى القطاطيب فتفكر فى ذلك برهة ولم يخطر له أنه سمع هذه اللفظة قط مدة حياته ومن ثم أجابه بأنه لا يظن أن هذه اللفظة فى اللغة العربية، فقال لا بل عربية كيف لا وبعض شعرائكم يقول :

ولولا المزعجات من الليالى لما حرم القطا طيب المنام

فضحك منه وأفاده صحة التلفظ فى ذلك الى أن فهم المعنى واعتذر له بأنه كان يظن لفظة طيب جزءا من اللفظة التى قبلها .

ابراهيم حداد